(التباين اللغوي والنحو الكلي)

منصور بن قزعان العتيبي

قسم اللغة العربية، كلية التربية، جامعة الأمير سطام بن عبد العزيز بالخرج
حاصل على الماجستير بتخصص النحو واللغة من جامعة الملك سعود، الرياض.
حاصل على الدكتوراه في تخصص اللغويات من جامعة إيسكس، بريطانيا.
mq.alotaibi@psau.edu.sa

الملخص:

موضوع البحث:

(التباين اللغوي والنحو الكلي).

ويهدف البحث إلى:

دراسة دور النحو الكلي في معالجة ظاهرة التباين اللغوي.

ومنهج البحث:

المنهج التحليلي من خلال نظريتي النحو التوليدي والنحو الكلي.

وأهم نتائج البحث:

تعريف ظاهرة التنوع اللغوي من حيث الموضوع والمنهج، ويقصد بها التنوعات اللغوية داخل إطار مجتمعي واحد وقد اهتمت الدراسة بالجانب اللغوي الاجتماعي. ميزت الدراسة بين مصطلحين متداخلين وهما اللغة واللهجة، فاللغة تعد نظامًا يتألف من مفردات وقواعد بينما تعد اللهجة أسلوبًا كلاميًّا له خصائصه الصوتية والتركيبية أو على مستوى اختيار المفردات. ترى الدراسة أن من أهم أسباب التعدد اللغوي الهجرة، فالناس في هجرتهم يحملون لغتهم، ولكنتهم الخاصة بهم إلى مناطق الهجرة، ومن الأسباب أيضًا اكتساب اللغة الثانية فاكتساب اللغة يختلف من بيئة إلى أخرى، ويمكن أن نلحظ هذه التغييرات في النطق واختيار المفردات أو في البنية الصرفية. اكتساب اللغة قد يضيف أنماطًا لغوية غير مألوفة إلى اللغة المكتسَبة. يبني النحو التوليدي قواعده في دراسة اللغة على ما هو موجود داخل الدماغ البشري، فمستخدم اللغة يمتلك نظامًا محدودًا في دماغه ذا صفة إنتاجية، وهذا النظام لا يدركه مستخدم اللغة فهو شبيه للنظام البصري في ملاحظته وإدراكه للأشياء. النحو الكلي هو وصف للملكة اللغوية التي تضم مجموعة من المبادئ العامة التي تشترك فيها كل اللغات. وتبرز أهمية قواعد النحو الكلي في كونها قادرة على وصف جميع اللغات، فاللغة بالنسبة إليه نظام مكتمل ذو تصميم مثالي، وقواعد اللغة لها تراكيب مصممة بعناية لتتلاءم في مثاليتها مع باقي مكونات العقل وأكثر تحديدًا مع النظام الفكري.

الكلمات المفتاحية:

التباين اللغوي، النحو الكلي، القواعد، اللغة، اللهجة.

Abstract

Research Topic:

Linguistic Variation and Universal Grammar.

The research aims to:

Study the role of universal grammar in addressing the phenomenon of linguistic variation.

Research Methodology:

The used methodology is the analytical approach through the theories of generative grammar and universal grammar.

Outcomes:

The main outcomes are defining the phenomenon of linguistic diversity in terms of subject and methodology, referring to linguistic variations within the framework of a single community, and the study focused on the socio-linguistic aspect. Language is considered a system consisting of vocabulary and rules, while dialect is a speech style with its own phonetic and structural characteristics or at the level of vocabulary selection. The study considers migration as one of the most significant reasons for linguistic diversity. Another reason is the acquisition of a second language, as language acquisition varies from one environment to another, leading to changes in pronunciation, vocabulary selection, or syntactic structure. Generative grammar builds its rules in language study based on what exists within the human brain, as language users possess a limited productive system in their brains. Universal grammar is a description of the linguistic intellect that includes a set of general principles shared by all languages. The importance of universal grammar rules lies in their ability to describe all languages, as language, for it, is a complete system with a perfect design, and language rules have carefully designed structures to fit perfectly with the rest of the mind's components and more specifically with the cognitive system.

Keywords:

Language Diversity, Universal Grammar, Syntax, Language, Dialect.

المقدمة:

أهداف البحث:

يدرس البحث ظاهرة التنوع اللغوي ودور النحو الكلي في فهم طبيعة اللغات، وكذلك الدور الذي يقوم به النحو الكلي في تفسير هذه الظاهرة.

مشكلة البحث:

المشكلة التي يحاول أن يعالجها هذا البحث تكمن في أهمية النحو الكلي أو القواعد الكلية التي تفترض أن القواعد اللغوية موجودة مسبقًا في الدماغ وأن لدى أي مستخدم للغة عنصري الكفاءة اللغوية والمقدرة اللغوية، وبالتالي فأي متحدث لأي لغة ليس بحاجة إلى تعلم تلك القواعد الكلية التي تشترك فيها كل اللغات الطبيعية، وهذه الفرضية بحاجة إلى اختبار وذلك بالنظر إلى حجم التباينات اللغوية الموجودة في اللغات البشرية، حيث تفترض النظرية أن القواعد هي وسيلة معرفتنا بلغتنا، وليس عنها، فعلى سبيل المثال يعتبر متحدث اللغة قادرًا على إنتاج جمل استفهامية، أو تعجبية، أو منفية، بالرغم من أنه لا يستطيع أن يفسر الطرق اللغوية التي مكنته من إنتاج هذا النوع من الجمل. هذه المعرفة جعلتنا قادرين على إنتاج هذا النوع من الجمل وقادرين أيضًا على استيعابه، وهي نفس المعرفة التي تمكننا من التمييز بين الصوت، والكلمة، والجملة. فالمتحدث الأصيل لأي لغة ليس فقط قادرًا على الفهم، بل يستطيع أن يميز بين ما هو صحيح أو غير صحيح، وهذا هو الدور الذي يقوم به النحو الكلي.

منهج البحث:

تعتمد هذه الدراسة في تحليلها على المنهج التحليلي وذلك من خلال نظريتي النحو التوليدي وبخاصة النحو الكلي والذي هو جزء من اللغة الفطرية داخل الدماغ البشري، ويقوم بدور مهمٍ في العملية اللغوية، فهو يحدد مسبقًا ما هو جائز أو غير جائز من وجهة نظر تركيبية (أو قواعدية). كما يميز أيضًا بين أنواع الكلم مثل: الاسم، والفعل، والمثنى، والجمع، والزمن، وذلك من جانبي المعنى والصرف، كما أنه يحدد طريقة عمل الوظائف

النحوية داخل الجملة بطبيعة الحال، وكما ذكر تشومسكي، فإن القواعد نوعان، فهناك القواعد الكلية وهي التي تشترك فيها جميع اللغات، وهذه القواعد المشتركة هي ما تُسمى بالنحو الكلي، وهناك القواعد الخاصة بكل لغة والتي تختلف من لغة إلى أخرى، ولكن الاختلافات اللغوية ليست عشوائية، واللغات كلها لا تتبع نظامًا واحدًا، فإذا افترضنا مثلًا أن أداة النفي يجب أن تلحق الفعل في كل اللغات فهذا افتراض غير صحيح، ففي اللغة العربية، مثلًا، جملة "*أحمد يساهم لم في المشروع" تعتبر خاطئة (هذه العلامة (*) تعني أن الجملة غير صحيحة)، ولكننا -في المقابل- نستطيع أن نفترض أنّ كل اللغات تحوي أداة نفي يختلف موقعها بالنسبة إلى الفعل من لغة إلى أخرى.

اهتمت اللغويات التاريخية كثيرًا بظاهرة التنوع اللغوي وذلك على عدة مستويات، فعلى مستوى الصوتيات -وهو الجانب اللغوي الذي وجد اهتمامًا في بداية نشأة ثورة اللسانيات- نجد -مثلًا- تشابهًا كبيرًا بين اللغات في عدد الحروف الصامتة، بينما نجد اختلافًا كبيرًا بينها في عدد حروف المد (إيفانس و لفينسون)[1]، فيوجد في اللغة العربية ثلاثة حروف مد وفي اللغة الإنجليزية عشرون حرف مد.

أما على مستوى الصرف وبنية الكلمة، فتفتقر اللغة الصينية إلى النماذج الصرفية للكلمة، بينما وصل التطور اللغوي في اللغة العربية إلى مستوى عال؛ فهي تعد لغة اشتقاقية، أي أنها تحوي العديد من النماذج الصرفية المختلفة.

بينما تختلف اللغات على مستوياتها التركيبية أو النحوية. فمثلًا، بإمكان الجمل في اللغة العربية أن تبدأ بفعل أو بمبتدأ، بينما لا تبدأ الجملة في اللغة الإنجليزية بفعل.

والاختلافات التركيبية كثيرة في اللغات، وذلك مثل الاختلاف في نظام المطابقة بين الفعل والفاعل، فمن اللغات ما يكون نظام المطابقة فيها كاملًا ومنها ما هو جزئيٌّ، ومنها ما يكون كاملًا وجزئيًّا وذلك مثل اللغة العربية.

فنظام المطابقة في اللغة العربية يكون جزئيًّا عندما يتقدم الفعل على الفاعل، ويكون

(1) The myth of language universals: Language diversity and its importance for cognitive science Evans, N. and Levinson, S. pp. 429 – 448.

كاملًا عندما يتأخر الفعل عن الفاعل، وبالرغم من كل هذه التباينات، فلا يرى يونغ وجود لغة نموذجية تتميز عن غيرها من اللغات، فاللغات في معظمها ذات كفاءة عالية وغنية بالمفردات(١).

حدود البحث:

تناقش هذه الورقة أولًا الأسباب التي أدت إلى التباين اللغوي، ثم تدرس معالجة النظرية التوليدية –والتي تعتمد على المقاربة الإدراكية في دراسة اللغة– لهذه الظاهرة.

خطة الدراسة:

تتضمن الخطة ما يلي:

هذه المقدمة.

١.التنوع اللغوي:

التصور اللغوي وجدلية النحو الكلي: نظرة تاريخية.

٢,١ اللغة واللهجة.

٣,١ أهم أسباب التعدد اللغوي.

٢. النحو الكلي:

١,٢ المعرفة اللغوية.

٢,٢ أهداف النظرية النحوية.

٣,٢ السمات الأساسية للغة البشرية.

٤,٢ القواعد الكلية.

الخاتمة

(1) The digital language divide How does the language you speak shape your experience of the internet? Young, H.

١. التنوع اللغوي

تعد دراسة موضوع مثل موضوعنا هذا (التنوع اللغوي) من الموضوعات الشائكة في حقل الدراسات اللغوية؛ وذلك نظرًا لكثرة التداخلات البينية، فمنها ما هو اجتماعي لغوي، أو نفسي لغوي، أو إدراكي لغوي، أو فلسفي بحت. وسأهتم هنا بالجانب اللغوي الذي يتعلق بالدراسات اللغوية الاجتماعية؛ وذلك لما توليه الدراسات الاجتماعية من اهتمام بعلاقة اللغة بالمجتمع (انظر، ريم بسيوني للحديث أكثر عن علم اللغة الاجتماعي)[١].

وقد يحسن التنويه هنا إلى وجود مصطلح آخر نجده عند بعض اللغويين وهو)علم الاجتماع اللغوي(ويقصد به كما عند مبارك تريكي[٢] أنه: "علم يدرس تنوعات اللغة ومستخدميها في داخل إطار اجتماعي مثل دراسة اختيار اللغة في الدول الثنائية اللغة أو متعددة اللغات وتخطيط اللغة والاحتفاظ باللغة وتغيير اللغة".

وقبل أن أشرع في مسببات التنوع اللغوي من جانبها الاجتماعي، أرى أنه من المهم أن أوضح للقارئ مفهوم التصور اللغوي وجدلية النحو الكلي، وذلك من وجهة نظر تاريخية، كما أرى أنه من المهم أيضًا أن نميز بين ثنائية اللغة واللهجة.

١,١ التصور اللغوي وجدلية النحو الكلي: نظرة تاريخية:

نظرًا للتنوع اللغوي الحاصل بين اللغات الطبيعية في مظاهرها الخارجية فإنَّ أي ادعاء بشأن "قواعد لغوية عالمية" ستُطرح حوله الأسئلة. فمثلًا، يرى جسبرسن أن النحو الكلي الذي لا جدال فيه هو الذي لا يتدخل فيه العنصر البشري، وأن الكلام المنطوق ما هو إلا انعكاس أو صورة للنظام الذهني الكلي[٣].

هذه الفكرة التي دعت اللغويين التاريخيين إلى رفض فكرة القواعد اللغوية الكلية، يقول أيضًا جسبرسن في ذلك: "لكي ننشئ فئات لغويةً في الجزء النحوي من نظامنا اللغوي، يجب علينا أولًا أن نطرح هذا السؤال: هل هذه الفئات هي فئات منطقية بحتة، أم أنها مجرد

(١) علم اللغة الاجتماعي في الوطن العربي (محاور ونظريات)، بسيوني، ريم.

(٢) فصول في اللسانيات الاجتماعية، تريكي، مبارك.

(3) Philosophy of grammar, Jespersen, Otto.

فئات لغوية؟ إذا كانت فئات منطقية بحتة فهذا دليل على أن النظام هو نظام نحو كليٍّ تشترك فيه جميع اللغات، أما إذا كانت مجرد فئات لغوية فليس بالضرورة أن تشترك فيها جميع اللغات، فقد تكون بعضٌ من هذه الفئات موجودة في لغة واحدة فقط، إذن فالسؤال القديم هو: هل يمكن أن يكون هناك ما يمكن اعتباره نحوًا كليًّا (أو عامًّا)؟"[١]، واعتمادًا على هذا الرأي، فإن وجود قواعد لغوية عالمية يعتمد على التناغم المنطقي واللغوي. يُعتبر المنطق بمثابة هيكل الفكر ويُنظر إليه على أنه عالمي، كما تُعتبر فئات الواقع الخارجي (التي "تتطابق" مع "فئات المفاهيم" في "العقل") عالمية أيضًا. وبناءً على ذلك، يتم رفض القواعد اللغوية العالمية بصورة متوقعة بناءً على حجج تشير إلى أن اللغة -على عكس الفكر (أو الواقع)- تُظهر أشكالًا مختلفة، وعلى هذا الأساس لا تبدو أنها تعكس الهيكل المنطقي والدلالي الثابت للفكر أو الواقع.

قد يكون من المهم هنا -وقبل أن نتعمق في موضوع الورقة- أن نفهم الأدلة التي رآها صاحبو هذا الاستنتاج. وبالتمعن في آرائهم، فالفكر والفئات اللغوية -عندهم- مفصولان عن بعضهما، كما أنهما كلاهما مفصولان عن فئات الواقع أيضًا؛ فالفكر وفئات الواقع هما في حقيقتهما هبة فطرية وليستا سلوكية. يرى جسبرسن[٢] ولانقاكر[٣] أن الكلمات يمكن تعريفها باعتبار تصنيفها بناءً على مفهومها الدلالي مثل: البنية، الصفة، أو الحدث.

النحو الكلي بالمقابل يظهر دوره فقط إذا ارتبطت الفئات القواعدية بالفكر أو بالواقع، وهذا يحدث غالبًا بصفة كلية ومشتركة في نطاق ضيق، أما إذا لم يكن حدوث ذلك ممكنًا وذلك للاختلافات اللغوية، فحينئذٍ لا وجود للنحو الكلي (للتفاصيل انظر أيضًا هاسبلمث)[٤]. في القرن التاسع عشر، كان جل تركيز اللغويات التاريخية واللغويات المقارنة ينصب على الدراسات الصوتية وقواعد التغييرات الصوتية، بينما تعد المقاطع الصوتية (الفونيمات) من الأشياء التي لا يدركها العقل الواعي للإنسان في استخداماته اللغوية

(١) السابق.

(٢) السابق.

(3) Foundations of Cognitive Grammar, Langacker, Ronald, pp. 2-42.

(4) Comparative concepts and descriptive categories, Haspelmath, Martin, pp. 663 – 87.

وتعد المعاني من الأشياء المدرَكة. ومع ذلك، فمسألة المعنى عند بلومفيلد لم تكن واضحة وجلية فهو يتعامل مع النحو دون أن يستند إلى المعنى في تحليلاته، وقد كان بلومفيلد ملتزمًا بالمنهج السلوكي والذي يقضي أن معنى الكلمة ما هو إلا شيء عارض يتضح من خلال النطق والاستقبال وقد يختلف بحسب الظروف المصاحبة للكلام(١).

يرى اللغويون أن حرية التعبير عن الذات والإشارة إلى الأشياء بمسمياتها العشوائية (الاعتباطية) تعتمد على مقدرة الإنسان على الإنتاجية والتي بدورها تأتي في هيئة مركبات أو جمل؛ مما يحد من مقدرة الإنسان على اكتساب كلمات ذات معانٍ يختارها هو بنفسه، يبقى الخوض في هذا النوع من الموضوعات مجال جدل كبير في القرن العشرين لعدة أسباب لا يسعنا ذكرها هنا (للتفاصيل، انظر بلومفيلد)(٢). بحلول العام ١٩٣٠م، استقل علم اللغة ليصبح ميدانًا للدراسة في المنطق وعلم النفس، وذلك بعد أن أصبح أولًا منهجًا تاريخيًّا مقارنًا ثم وصفيًّا، ومع ذلك لم تخرج دراسات تثبت ظاهرة الكلية في الظواهر اللغوية بما في ذلك نظام مقاطع الكلام في العائلة الهند أوربية العامة، يقول في ذلك بلومفيلد (ص: ٢٠): "أشياء نعتقد أنه يجب أن تكون عالمية قد تكون غائبة في اللغة التالية التي تصبح متاحة".

بعض السمات، مثل الفرق بين الكلمات المشابهة للأفعال والكلمات المشابهة للأسماء كأجزاء للكلام، مشتركة بين العديد من اللغات، لكنها غير موجودة في كل اللغات، وفي حقيقة الأمر، فإن بعض السمات التي تشترك فيها اللغات وتنتشر على نطاق واسع هي التي تستحق الملاحظة وتتطلب تفسيرًا. ويضيف أيضًا، عندما نمتلك بيانات كافية حول العديد من اللغات، سنضطر في النهاية إلى العودة إلى مسألة النحو الكلي وشرح هذه التشابهات والتباينات، ولكن هذه الدراسة لن تكون تخمينية، بل ستكون استقرائية"(٣)، إذ يؤكد بلومفيلد على أن دراسة التباين اللغوي يجب أن تكون مستقلة عن علم النفس، كما يجب عليها أن تتخذ الأسلوب التجريبي منهجًا لها، وهذا بدوره سوف يكون منقادًا إلى النحو.

---

(1) Language, Bloomfield, Leonard.

(٢) السابق.

(٣)السابق.

ظهرت بعد ذلك، وبعد عقدين من الزمان، الثورة المعرفية على يد العالم والفيلسوف الأمريكي نعوم تشومسكي، والتي من أساسياتها معالجة اللغة من جانب توليدي، حيث قام بالتمييز بين الكفاءة اللغوية (المعرفة الكامنة للغة للمتحدث الأصلي) والأداء (ما يقوله الناس أو ما يفهمونه عندما يتحدث شخص آخر في مناسبة معينة)، فالكفاءة هي "معرفة المتحدث/المستمع بلغته"، بينما الأداء هو "الاستخدام الفعلي للغة في مواقف واقعية" (تشومسكي، ص: ٤)[١]، وقد ركز تشومسكي على النحو وحده باعتباره نظامًا ذهنيًّا مستقلًّا يتكون من قواعد رياضية تختلف عن تلك التي تنطبق على مجال الدلالة أو المنطق، وفي هذا السياق، لم يكن هناك تعارض بين اللغة والفكر فهما منفصلان عن بعضهما البعض.

وفي وقت لاحق، بدأ المنهج الديكارتي (Cartesian) يأخذ مكانًا أكبر في مجال اللسانيات والفلسفة. على سبيل المثال، في فودور، تمت معالجة النحو كنظام مستقل أكثر من مجرد قرار منهجي مؤقت، حيث أصبح ذلك افتراضًا هندسيًّا، وتم ربط هذا النهج بمفاهيم مثل (التمايز) و (التجزئة) و(الفطرة)، والتي ارتبطت بأنواع من دراسات ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا). فعلى سبيل المثال يزعم هذا المنهج وجود رموز محددة داخل الدماغ ترمز إلى الصوتيات، مثلًا، كما أنها جزء من مكون هندسي ذي طابع نمطي أو فطري يتم تحديده وراثيًّا[٢].

انتقد تشومسكي هذا المنهج وذكر أن العلماء الديكارتيين الذين اهتموا باللسانيات لم يقدموا أساسًا لمحاولة توليد التراكيب العميقة التي تحمل المحتوى الدلالي (الفكر) بشكل فعال؛ فهم لم يفرقوا بين البنى السطحية والبنى العميقة، ومن الأمثلة التي توضح جيدًا الفرق بين البنيتين السطحية والعميقة، ما أورده تشومسكي (ص: ٨٠): "الله الذي لا يراه أحد من البشر خلق العالم الذي يراه البشر"، في هذا المثال، ربما تكون البنية العميقة هو الخالق سبحانه وتعالى وهو الذي لا يراه أحد من البشر وهو الذي خلق العالم الذي يراه البشر. هنا، وفي هذا المثال، تجتمع ثلاث جمل بسيطة، هي:

(1) The Minimalist Program, Chomsky, Noam.

(2) The language of thought, Fodor, Jerry

١. الخالق سبحانه الذي لا يراه البشر.
٢. خلق العالم.
٣. العالم الذي يراه البشر[١].

يصف تشومسكي هذا بالفرضية التجريبية التي لا وجود لدليل عليها، وبالتالي فليست النظرية اللغوية في العموم مقيدة بما هو ممكن من البنى العميقة وما هو ممكن من البنى السطحية، ومثل هذه النظريات فإن التحليلات والتفسيرات لا تكون مبنية على بنية الفكر بشكل مباشر، بل تعتمد على التباين اللغوي كما لا تعتبر المبادئ اللغوية أشياء ذات ارتباط وثيق بالفكر الإنساني، وفي الوقت نفسه قد يكون من الصعب إيجاد تفسيرات منطقية لمظاهر التباين اللغوي دون أن يكون لذلك صلة قوية بالفكر. على العموم، ورغم ظهور العديد من النظريات الحديثة بشتى أصنافها الإدراكية والنفسية والمنطقية إلا أن الكشف عن علاقة اللغة بالفكر ما زالت محل جدل.

٢,١ اللغة واللهجة

ماذا يقصد باللغة وماذا يقصد باللهجة من وجهة نظر اللغوي وكذلك من وجهة نظر المتحدث باللغة؟ في اللغويات الاجتماعية (انظر على سبيل المثال، تروسديل)[٢]، اللغة واللهجة مرتبطتان بالهوية والأمة، غير أن هذا الأمر لا يلقى قبولًا عند المهتمين باللغويات المعرفية، فهم يستخدمون مصطلحي لغة ولهجة عندما يناقشون بيانات لغوية مختلفة الأنماط، وفي المقابل، نجد المهتمين باللغويات النظرية لا تعني لهم هذه الاختلافات بين اللغة واللهجة كثيرًا، فهم يكترثون باللغة (ملكة اللغة)، وهي بنية افتراضية في الدماغ البشري يُعتقد أنها تحتوي على قدرات فطرية للغة.

في المعاجم اللغوية، مثل معجم أكسفورد للغة الإنجليزية، نجد في تعريف اللغة: هي نظام التواصل الشفهي أو الكتابي الذي يستخدمه بلدٌ أو شعبٌ أو مجتمع معين، ويتألف هذا النظام من مفردات معجمية تصطف لتكون جملة مفيدة بناء على قواعد وتراكيب نحوية

(1) Cartesian Linguistics: A Chapter in the History of Rationalist Thought Chomsky, Noam

(2) An Introduction to English Sociolinguistics, Trousdale, G.

محددة، أما تعريف اللهجة فهو: "الأسلوب اللغوي والكلامي والخطابي لشخص أو لفئة معينة والذي يحمل خصائص معينة للغة الناشئة سواء على مستوى المفردات أو النطق أو التعابير الاصطلاحية، وتنوعها واختلافها عن اللغة القياسية"، وإذا ما استثنينا فئة المتكلمين فإننا نلاحظ مما سبق صعوبةً في التفريق بين اللغة واللهجة، فهناك معاجم لغوية أيضًا تعرف اللهجة أنها لغة، فاللهجة قد تكون فرعًا من اللغة. على سبيل المثال، اللهجة النجدية هي فرع من اللغة العربية. ومع ذلك، يمكن أن نتكئ على هذه التعريفات وذلك لكشف مدى التنوع اللغوي وعلاقة اللغات (أو اللهجات) المستخدمة في بيئة معينة بما يسمى باللغة المعيارية أو اللغة الأكثر انتشارًا في هذه البيئة، كما نلاحظ أن تعريف اللغة احتوى على "بلد" أو "شعب" أو "مجتمع"، كما احتوى تعريف اللهجة على "شخص" أو "فئة"، وهذا يدل على وجود مظاهر لغوية مختلفة سواء على مستوى الأفراد أو على مستوى المجتمعات (إذا افترضنا أن المجتمع قد يكون شعبًا كاملًا أو فئة صغيرة معينة)، وبطبيعة الحال هذا سيخلق تحديًا كبيرًا، فحصر الاختلافات اللغوية بين الأفراد أو بين الفئات قد يكون مستحيلًا؛ وذلك نظرًا للعدد الهائل من البيانات اللغوية سواء الصوتية أو الصرفية أو التركيبية أو حتى الدلالية، كما يمكن ملاحظة أن بعض المعاجم تضع اللهجة موضع الفرع من اللغة؛ فاللهجة فرع يتبع الأصل -اللغة- ويشاركها في جزئيها المكاني والاجتماعي أيضًا، كما يُمكن أن تُدرس اللهجة لمعرفة خصائص اللغة، فهناك مظاهر لغوية في اللغة قد لا نستطيع تفسيرها إلا بدراسة تلك الظواهر في اللهجة الفرع.

وأخيرًا، فاللهجة تميل إلى التحرر من القيود التي تضعها قواعد اللغة المعيارية، فعلى سبيل المثال نجد أن اللهجات العربية لا تلتزم بنظام تفاوت المطابقة بين الفعل والفاعل والمعمول به في نظام اللغة العربية الفصحى، ففي الفصحى يكون نظام المطابقة كاملًا إذا تقدم الفاعل وجزئيًا إذا تقدم الفعل، أما في اللهجات فنظام المطابقة دائمًا كامل بغض النظر عن موقع الفعل بالنسبة للفاعل.

٣,١ أهم أسباب التعدد اللغوي

تعد الهجرة من أهم مسببات التنوع اللغوي على الإطلاق، فالناس في هجرتهم يحملون

أيضًا لغتهم أو على أقل تقدير لكنتهم الخاصة بهم، وبحسب الإحصاءات الدولية والوطنية، فإن مئات اللغات المهاجرة والتي تصل إلى ما نسبته تقدر بحوالي تسعين لغة ترتبط مكانيًّا وإقليميًّا بأوروبا؛ وذلك بصفتها الوجهة الأولى للمهاجرين. فما بين الفترتين ١٩٦٠ و١٩٨٠م تصدرت شمال أوربا وغربها وجهات المهاجرين القادمين من خارج أوروبا ومن أوروبا الجنوبية والشرقية. ومع بداية التسعينيات، أصبحت أوربا جميعها وجهة محبذة للمهاجرين من خارجها، فعلى سبيل المثال أصبحت دول مثل اليونان، وإسبانيا، وإيرلندا، وإيطاليا، والبرتغال مقصدًا مفضلًا للمهاجرين.

قبل التسعينيات، كان عدد الدول المصدرة للمهاجرين محدودًا، الأمر الذي زاد بشكل ملحوظ فيما بعد التسعينيات. فمثلًا، في عام ٢٠٠٦ في ألمانيا، أظهرت الإحصاءات أنّ هناك أشخاصًا هاجروا إليها من حوالي ١٥٠ بلدًا، في الوقت الحالي يمثل عدد المهاجرين ما يقرب من ١٩٠ دولة (انظر يوروستات)[١]، هذا الأمر بشأنه أن يلقي ظلالاً على حجم التنوع اللغوي في تلك المناطق، وتتزامن العديد من اللغات داخل بيئة مشتركة في أوربا، الأمر الذي حدا بالباحث فرتوفك بوصفه بـ "التنوع اللغوي غير المعقول"[٢]. اقترح فرتوفك هذا المصطلح وذلك من أجل تسليط الضوء على مستوى التعقيد ونوعه والذي يفوق كل ما تم تجربته سابقًا من مظاهر التنوع اللغوي في مجتمعات معينة[٣]. هذا النوع من التعقيد اللغوي يختلف تمامًا عن التنوعات الثقافية أو الاجتماعية، ويرى فرتوفك أنه يجب فحص البنيات التركيبية للمهاجرين، والعوامل المؤثرة في نمط حياتهم بدءًا من حياة الفرد حتى حياة المجتمع، وكذلك أنماط التوزيع المكاني، وإمكانية اندماجهم أو انخراطهم مع المجتمعات الأخرى[٤]. والسؤال هنا، كيف نستطيع تمييز التنوع اللغوي في إقليم ما؟ في نظري، التنوع اللغوي يمكن أن يُفهم على أنه اللغات المرتبطة بموقع جغرافي محدد، وهو جزء من مواقع جغرافية أخرى لها لغاتها الخاصة بها والتي قد تشترك مع جاراتها في بعض الظواهر اللغوية

(1) Migration and Migrant Population Statistics, Eurostat, M

(2) Super diversity and its implications, Vertovec, S. pp. 1024 1054.

(٣) .المصدر السابق

(٤) المصدر السابق

على كافة المستويات الصرفية أو الصوتية أو التركيبية، فيما تنتمي تلك المواقع الجغرافية المختلفة إلى إقليم أو دولة واحدة، مثال على ذلك، الاختلاف اللغوي في مناطق جنوب المملكة العربية السعودية، فاللغة الفيفية (منطقة جبال فيفا، جنوب المملكة) تختلف عن لغة أهل جيزان وهما منطقتان جغرافيتان متجاورتان.

ومن الأسباب المهمة أيضًا مسألة اكتساب اللغة، فاكتساب اللغة يختلف من بيئة إلى أخرى، ويمكن أن نلحظ هذه التغييرات في النطق واختيار المفردات أو في البنية الصرفية، ويمكن أن تمثل هذه الاختلافات اللغوية هوية للمجتمع، وقد يؤدي هذا إلى ظهور أنماط لغوية غير مألوفة، قد يرى البعض عدم اتساقها أول الأمر أو يصنفها أخطاء لغوية، غير أن تلك الممارسات اللغوية قد تصبح مع الوقت ممارسات مقبولة، ويرى قوقولين و نيومان أن التنوع اللغوي الناجم من منظور اكتساب اللغة الثانية، ولا سيما ما يحدث من نقل خصائص اللغة الأولى إلى اللغة الثانية (المكتسَبة)، يُصنَّف انحرافًا صريحًا عن معايير اللغة المستهدفة[1]. واستنادًا إلى هذه الملاحظة التي ترى أن متعلمي اللغة الثانية نادرًا ما يصبحون متمكنين جدًّا في نطق الكلمات كما ينطقها المتحدث الأصيل، إذا ما استثنينا بعض الحالات التي تعد نادرة ولا يقاس عليها، فإن من أهم أهداف اكتساب اللغة أن يتمتع المتعلمون بقابلية عالية جدًّا في الفهم، وليس الامتثال الكامل لقوانين اللغة المستهدفة، علاوة عن صعوبة التواصل بين المرسل والمستقبل، فالمستقبل قد يبذل جهدًا عاليًا جدًّا ليفك رموز لكنة المرسل، والتي في أغلب الأحيان يغلب عليها الطابع المحلي المبتذل.

في دراسة قدمها كل من رودينا و وسستيرقارد حول اكتساب علامات التذكير والتأنيث من قبل أطفال ثنائي اللغة، ممن يتحدثون اللغتين الروسية والنرويجية. طبقًا للدراسة، فإن نظام التذكير والتأنيث في اللغة الروسية أكثر وضوحًا منه في اللغة النرويجية؛ وذلك يعود إلى أن النظام في اللغة الروسية يستخدم مورفيمات محدودة وقليلة لتحديد المذكر والمؤنث. علاوةً على ذلك، فالأطفال الذين يعيشون مع أبوين روسيين أسرع في اكتساب نظام التذكير والتأنيث في اللغة الروسية من أقرانهم ممن لديهم أبوان أحدهما روسي والآخر نرويجي. كما

(1) The bilingualism controversy Gogolin I., Neumann U.

ترى الدراسة أن الأطفال الذين يكتسبون اللغة من والد واحد (وليس من والدين اثنين) هم في الحقيقة لا يعدون ثنائيي اللغة، وهم بحاجة إلى برامج لغوية لكي يصبحوا ثنائيي اللغة بشكل حقيقي(١).

٢. النحو الكلي

٢,١ المعرفة اللغوية

تتجه المدارس اللغوية نحو بناء نظريات بإمكانها أن تفسر اللغة البشرية وأن تؤطر لها، وهذا يمثل منهجًا علميًّا قائمًا بحد ذاته لا يكتفي بوضع مفاهيم تحليلية تقوم على الوصف وموجهة نحو بيانات ظاهرة معينة. في المسار اللغوي، يطرح تشومسكي (ص: ٣) أربعة أسئلة هي بمثابة المحاور، وكل منها يحتاج إلى مؤلفات؛ ولذا سأكتفي بذكرها هنا، وهي:

١. ما الذي تعنيه معرفة اللغة؟
٢. كيف يعرف الإنسان لغته؟
٣. كيف يستخدم الإنسان تلك المعرفة؟
٤. ما الأساس المادي لتلك المعرفة(٢)؟

تكون هذا المحاور الأربعة نموذجًا مكتملًا نحو طرح نظرية لغوية، فهي تتحدث عن طبيعة المعرفة اللغوية، واكتسابها واستعمالها، وأساسها المادي في الدماغ البشري. يقول في هذا باقر: أن على الباحث اللغوي أن يفرق بين النظامين الداخلي والخارجي للغة؛ الداخلي وهو المستقل عن اللغة، أي يميز بين القواعد اللغوية (النظام الداخلي) والجوانب اللغوية الأخرى والتي تأتي نتيجة تداخل اللغة بغيرها من مجالات المعرفة، إن تبرير التمييز بين نوعين من المعرفة يعتمد على افتراض وجود نظام داخلي للغة مستقل عن غيره(٣).

يمكن تعريف القواعد بأنها الجوانب الشكلية التي تؤطر عليها البنية الشكلية للنظام

(1) The acquisition of gender and declension class in a non-transparent system, Rodina, Y., & Westergaard, M. pp. 47–67.

(2) Minimalist Inquiries: The Framework, Chomsky, Noam, pp. 89 - 155.

(٣) مقدمة في نظرية القواعد التوليدية، باقر، مرتضى

اللغوي، وهذه البنية لا يمكن أن نصفها بمفاهيم وظيفية أو اجتماعية أو دلالية أو غيرها من المفاهيم الخارجة عن النظام الداخلي المستقل للغة، وقد اختلفت المدارس اللغوية في مفهوم استقلال القواعد في الدراسات اللغوية، ومدى جدوى بناء نظرية لسانية تقوم على هذا الأساس دون النظر إلى أي اعتبارات خارجة عن هذا النظام اللغوي ذاته، ولعل أهم مدرسة قامت فعلًا على تبني هذا المفهوم هي المدرسة التوليدية (تشومسكي)[١]، والسؤال المطروح الآن، ما أهداف النظرية النحوية؟ وهذا ما سأتناوله فيما يلي.

٢,٢ أهداف النظرية النحوية

بالعودة إلى أعمال تشومسكي التي بدأ يطرح فيها بوادر النظرية التوليدية خاصة ما طرحه في كتابه[٢] في عام ١٩٦٥م وما تبعه من أعمال نجد أن معظم تلك الأفكار التي بنى النظرية على أساس منها ما زالت قائمة مع بعض التعديلات الطفيفة على بعض ملامحها. تلك المبادئ ما زالت صامدة على مر الزمن كما أنها ما زالت تلقى تأييدًا مع تدفق الأبحاث العلمية في الحقول المعرفية خلال الأربعين سنة الماضية، ويعتمد النحو التوليدي على دراسة اللغة كما يتمثلها العقل البشري (الدماغ) وليس بوصفها ظاهرة مجردة موجودة في المجتمع، ويعد اللغويون ظاهرة إرسال الكلام من المتكلم وفهمه من قبل المستمع هي الظاهرة اللغوية الأساسية وبالتالي فالسؤال المهم هو: ما الشيء الذي يوجد في عقل (دماغ) كلٍّ من المتكلم والسامع ليجعل هذه العملية اللغوية التبادلية فاعلة؟ هذا السؤال مطروح بكثرة في الأبحاث المهتمة بالنحو التوليدي؛ فهي تؤمن أن النحو التوليدي يبحث عن التفسير الذهني للغة، ويؤمن تشومسكي وغيره من التوليديين أن اللغة البشرية ليست محصورة في أرقام صغيرة من إشارات معزولة ومرتبطة مع بعضها البعض، لكن بالأحرى فالمتحدث بأي لغة بشرية يمكنه أن يُنشئ ويفهم عددًا لا متناهيًا من الكلام في عدد لا متناهٍ من الموضوعات المختلفة، وهذا يتضمن أن مستخدم اللغة والذي يمتلك نظامًا محدودًا في دماغه يجب أن يكون هذا النظام ذا طابع إنتاجي يمكنه من بناء كلام جديد مباشرة

(1) The Minimalist Program, Chomsky, Noam

(2) Aspects of the Theory of Syntax, Chomsky, Noam

(وهذا النظام يتضمن إضافة للإنتاج الاستقبال)، وذلك اعتمادًا على أساس محدود مخزن داخل الذاكرة، هذا الأساس المحدود هو ما يتعارف عليه اصطلاحيًّا بـ(المعجم اللفظي)، أما النظام الإنتاجي فهو ما يتعارف عليه اصطلاحيًّا بـ(القواعد).

من المهم معرفة أنّ المتحدث لا يشعر بنظام القواعد هذا فهو نظام خارج عن إرادته ووعيه، وهذا النظام شبيه بالنظام البصري في ملاحظته للأشياء المادية وتفسيرها، فهو نظام مبني داخل الدماغ لا يمكن للمتحدث أو المتلقي أن يصل إليه أو يتلاعب بأنظمته كما يفعل مع قانون لعبة ما أو نظام حركة مرور.

السؤال الذي قد يتبادر من وجهة نظر ذهنية للغة هو كيف يمكن للمتحدث أن يحصل على ما يريده من نظامي المعجم اللفظي والقواعد، خاصة إذا كان نظام القواعد من غير المدرَكات بالنسبة للإنسان، فعملية اكتساب اللغة بالنسبة للطفل تتم من خلال مدخلات لغوية يستقبلها الطفل دون إدراك منه بنظامها التركيبي المبني على قواعد لغوية، كما أنّ الأبوين لا يستطيعان نقل القواعد إلى أطفالهم عبر إعطائهم تعليمات، وهذا أيضًا يستدعي سؤالين آخرين: ما نوع المدخلات التي يستعملها الطفل؟ والسؤال الأكثر أهمية: ما المصادر الداخلية التي يستحضرها الطفل لتمكنه من إنشاء جملة مبنية على قواعد معتمدًا على ما يملك من مدخلات؟

هذه الأسئلة الفلسفية المعقدة لاقت اهتمامًا منذ ورقة ميلر وتشومسكي[١]، ويؤكد جاكندوف وكوليكوفر على قدرة الطفل على بناء جمل على أساس قواعدي صحيح يجعلنا نفكر في أن الطفل مزود ببعض القوانين والتي تمكنه من إنشاء مجموعة تحليلات محتملة للمدخلات وكذلك القدرة على وضعها في نطاق ضيق، هذه القوانين جعلها النحو التوليدي -منذ بداياته (النحو التوليدي التقليدي)- هدفًا من أهم أهدافه التي ينظم مبادئه وقواعده لتحقيقها، والتي أُصطلح على تسميتها بـ "النحو الكلي" أو "المقدرة اللغوية"[٢]. وقبل أن نخوض في تفاصيل المدرسة التوليدية وكيف أطرت للنحو الكلي، علينا أن نفهم بعض السمات الأساسية للغة البشرية.

(1) Miller, George A. and Noam Chomsky. 1963. Finitary models of language users, pp. 419–491.

(2) Control is not movement, Culicover, P. W. and Jackendoff, R. pp. 483 - 512.

٢,٣ السمات الأساسية للغة البشرية

من أهم وظائف اللغة البشرية التواصل ونقل المعلومات على حد سواء بصفتها لغةً ذات مستوى عامي واستخدام يومي أو بصفتها لغةً أكاديمية ذات مستوى رفيع، فاللغة تمدنا بمعانٍ صالحة لأن تصف طريقة الطبخ، أو طريقة فهم قانون الجاذبية الأرضية، أو طريقة فهم قواعد أي لغة بشرية، أو كيف لنا أن نستطيع أن نقنع الآخرين بالحجج. نحن -بشكل عام- نهتم بخصائص معينة للغة قادرة على أن تكون مفاتيح أساسية لدراسة اللغة دراسة مجردة من النظريات وذلك على سبيل بداية الدراسة اللغوية، وأول خاصية لغوية معروفة على مستوى الدراسات اللغوية هي تلك التي أكّد عليها ساوشر أنه لا يوجد علاقة سببية بين الصوت والمعنى، هذه الخاصية يمكن أن نستدل عليها بأن المعنى الواحد يمكن أن يُعبر عنه بأصوات (كلمات) مختلفة في لغات مختلفة، مثلًا: المكان الذي تأوي إليه الأسرة الواحدة يسمى في اللغة العربية "بيت"، بينما يسمى في الإنجليزية هاوس "house" وفي الفرنسية ميسون "Maison" كلمة "حضرموت" مركبة من كلمتين مزجتا لتصبح كلمة واحدة، ومع ذلك فليس لدلالتها اللفظية علاقة بأي من جزئيها، "حضر" و"موت". العلاقة بين صوت الكلمة ومعناها هي علاقة اعتباطية وهذه العلاقة مبنية على ما تعارف عليه المجتمع الذي ينتمي إليه المتحدثون، وثاني أهم خاصية من خصائص اللغة البشرية وواحدة من أهم المعايير في علم التركيب اللغوي هي أن اللغة تصنع عددًا لا محدودًا من الاستعمالات اللغوية في ظل عدد محدود من القواعد والمبادئ اللغوية.

هذه الملاحظة أدت إلى تطوير اللغويات التوليدية في القرن العشرين (انظر تشومسكي)[١]، واللغة هي نظام يسمح بترابط أجزائه بطرق عديدة وغير محدود، وأحد الأدلة على هذا النظام هو ما يمكن ملاحظته على قيود ترتيب الجملة. فإذا كانت الجملة عبارة عن ترتيب كلمات ولدينا أربع كلمات مثل: (جلس، بيت، في، أحمد)، فكم ارتباطًا محتملًا يمكن تكوينه من هذه الكلمات الأربع؟ رياضيًّا: هذه الكلمات الأربع نستطيع أن نتلاعب بأماكنها في الجملة لتكون لنا اثنتين وسبعين جملة، لكننا نحصل من هذا العدد على ست

(1) Aspects of the Theory of Syntax, Chomsky, Noam

جمل عربية صحيحة:

١. أ.جلس أحمد في بيت.
ب. أحمد جلس في بيت.
ج. أحمد في بيت جلس.
د. جلس في بيت أحمد.
هـ. في بيت جلس أحمد.
و. في بيت أحمد جلس.

ما تبقى من الاثنتين وسبعين جملة، ستٌ وستون جملة، تعتبر جملا غير مقبولة لدى المتحدث العربي الأصيل. ما يلي من أمثلة في (٢) هي أمثلة قليلة مختارة من بين الست وستين جملة. سوف أتبع الطريقة المتعارف عليها في الدراسات اللغوية وذلك باستخدام الرمز * للإشارة إلى الجملة غير الصحيحة (غير المقبولة).

٢. أ.* في جلس أحمد في البيت
ب. * جلس في أحمد البيت
ج. *البيت جلس أحمد في

من الواضح أن هناك قواعد في اللغة العربية تحدد طرق معينة لارتباط الكلمات مع بعض لتمنع أن يكون لدينا جمل غير مقبولة كالتي لاحظناها في الأمثلة الواردة في (٢)، وهذه القواعد تحدد ماهية الكلمات التي تستطيع أن ترتبط مع بعض (تتجاور) كما تحدد هذه الكيفية، وهذه القواعد تلعب دورًا مهمًّا في فهمنا لعلم التركيب، ولنفهم ذلك أكثر دعونا نتمعن المثالين (أ) و(ب) الموجودين في (٣):

٣. أ. سارة تعيش في بيت اشتراه أحمد لها.
ب. * سارة تعيش في بيت اشترى أحمد لها.

يجب على هذه القواعد التي تعنى بترابط الكلمات أن تعطي حالة قواعديةً مختلفة تتناسب مع ما ورد في (٣أ). فبالرغم من كون المعنى قد يكون مفهومًا وواضحًا غير أن

تركيب الجملة غير صحيح، فاللغة العربية لها متطلبات تركيبية للفعل "اشترى" تحققت في جملة (٣أ) ولم تتحقق في جملة (٣ب)، والقواعد التي تخضع لها متطلبات الترابط بين الكلمات أو بين مجموعة من الكلمات يمكن لها أيضًا أن تكون دليلًا على الافتراضية التي ذكرها آنفًا في هذا المبحث، وهي أننا نستخدم مجموعة محدودة من المصادر اللغوية لإنتاج جمل صحيحة، وبذلك فنحن لا نتكئ فقط على معاني الكلمات داخل الجملة، والعديد من الأدلة من اللغة الطبيعية على فرضية "مجموعة محدودة من القواعد والمبادئ" يمكن أن نجدها في المقدرة المعرفية الإبداعية.

عندما يتكلم الإنسان فهو غير واعٍ بالقواعد اللغوية التي يستخدمها (بديهيًّا) أثناء تركيب الجمل وترتيب الكلمات واستخدام أنظمة مثل المطابقة والنقل وغيرها، فهو لا يجد صعوبة في إنتاج جمل صحيحة ومقبولة في النظام اللغوي الذي يتبع إليه هذا الفرد كما لا يجد صعوبة في فهم جمل لم يسبق له أن سمعها أو رآها أو تحدث بها من قبل. مثلًا، الجملة التالية ربما لم نقرأها أو نسمعها من قبل، بيد أننا قادرون على أن نفهم معناها متى ما امتلكنا نظام الكفاءة اللغوية الذي يحدد العلاقات الدلالية الممكنة الجامعة بين الرموز الشكلية المنظَّمة لخصائص هذا النظام[١]:

٤. فجأةً في شهر محرم ١٤٤٤ هـ، أصبح نجمٌ باهتٌ في كوكبٍ غامضٍ أكثر إشعاعًا من الشمس بمقدار يفوق درجة أشعتها بأكثر من ٨٠٠٠ مرة، مما جعله مؤقتًا النجم الأكثر إشعاعًا في مجرتنا.

هذا الكفاءة اللغوية التي يمتلكها الإنسان تمكنه من إنتاج وفهم عدد لا محدود من الجمل الصحيحة. مثلًا، من الجملة البسيطة الواحدة كما في (٥أ) يمكن أن ننتج جملًا أكثر تعقيدًا مثل التي في (٥ب) وذلك فقط بإضافة صفة، والأمر دواليك، فيمكن أيضًا أن نزيد من تعقيد الجملة بإضافة صفة أخرى على جملة (٥ب) كما في (٥ج)، ويمكن أن نستمر في

(١) قسّم تشومسكي (١٩٦٥: ٣١) النظرية اللغوية إلى قسمين نظام الكفاءة اللغوي linguistic competence ونظام الأداء اللغوي Linguistic Performance. النظام الحوسبي اللغوي هو الذي يهتم بالمعرفة الضمنية للقواعد أما الأداء المعرفي فيهتم بهذه المعرفة في أدائها الواقعي.

إضافة عدد لا محدود من الصفات في كل مرة لننتج جمل أكثر تعقيدًا من سابقاتها في كل مرة كما يلي:

٥. أ. ركل الولد الكرة.
ب. ركل الولد الطويل الكرة.
ج. ركل الولد الطويل الوسيم الكرة.
د. ركل الولد الطويل الوسيم المؤدب الكرة.

قد يقول قائل إن عدد الصفات في اللغة العربية التي قد تصف "الولد" سوف تنتهي وبالتالي يجب أن يتوقف إنتاج جملًا إضافية جديدة. ومع ذلك، لن يجد الإنسان نفسه عاجزًا عن وجود طرق أخرى للاستمرار في إضافة مكونات لغوية جديدة على سابقتها (انظر ساق وآخرون(١)، تأمل الأمثلة التالية:

٦. أ. بعض الجمل يمكن أن تستمر.
ب. بعض الجمل يمكن أن تستمر وتستمر.
ج. بعض الجمل يمكن أن تستمر وتستمر وتستمر.
د. بعض الجمل يمكن أن تستمر وتستمر وتستمر وتستمر.

في (٦ب) أضفنا "وتستمر" لننتج جملة أطول من (٦أ). مرةً أخرى أضفنا "وتستمر" إلى المنتج اللغوي في (٦ب) لننتج جملة أطول منها في (٦ ج). من ناحية المبدأ، بإمكاننا أن نستمر دون توقف؛ وهذا كافٍ لنثبت أن بإمكاننا أن ننشئ عددًا لا متناهٍ من الجمل الصحيحة في اللغة العربية، إذا اتفقنا أننا قادرون أن ننتج عددًا لا محدود من الجمل، فالسؤال التالي هو: كيف يمكن أن نشرح الحقيقة القائلة إننا بإمكاننا إنتاج وفهم هذا الكم اللا متناهٍ من الجمل الصحيحة، والتي لم نتعرض لها من قبل سواء عن طريق السماع أو القراءة أو أي وسيلة تواصلية أخرى؟ فمن غير المقبول أن نفكر في أن ذاكرتنا تقوم بحفظ كل جملة تتعرض لها، وفي الواقع فالذاكرة لا تقوم بهذا العمل كما نوقش في بولوم

(1) Syntactic Theory: A Formal Introduction, Sag, I. Wasow, T. and Bender, E.

وسكولز[1]. نحن نعلم أن هذا التصور لا يمكن أن يكون واقعيًّا، خاصة حينما يتعلق هذا التصور بمقدرة الإنسان على إنتاج عدد لا محدود من الجمل الطويلة التي يمكن ألا تتوقف كما لاحظنا في (٥) و(٦)، أضف أيضًا أن هناك حدودًا لكمية المعلومات التي يستطيع الدماغ أن يتتبعها كما أنه ليس من المعقول أن نعتقد أن بإمكان الدماغ أن يخزن عددًا لا متناهيًا من الجمل ويستعيدها متى ما أردنا ذلك، الإجابة عن السؤال السابق هي ما توصل إليه علماء اللغة أن كل إنسان قادر على التحدث يملك نظامًا للكفاءة النحوية يمكنه من إنتاج وفهم أي جملة من هذا العدد اللا متناهٍ من الجمل الصحيحة، وهذه الفرضية لاقت قبولًا كبيرًا لدى اللغويين وأصبحت أساسًا مهمًّا تعتمد عليه أي نظرية نحوية. وبالنسبة للقواعد، فهذه الكفاءة النحوية هي فرضية صيغت بواسطة النحو التوليدي ويمكن تعريفها كما يلي:

٧. الكفاءة النحوية:

يفترض النحو التوليدي أن بإمكان المتحدث الأصيل للغة أن يولد عددًا لا محدودًا من الجمل الصحيحة تركيبيًّا، وذلك باتباع عددٍ محدودٍ من القواعد والمبادئ التركيبية والدلالية. نخلص من ذلك أن الوظيفة الأساسية لعلم التركيب هي أن يكتشف القواعد والمبادئ ويقوم بصياغتها ليُظهر كيف للكلمات أن يرتبط بعضها مع بعض لتكون مركبات وجمل صحيحة نحويًّا. ويهدف النحو التوليدي إلى إعطاء تعريف دقيق ونموذجي لهذه القواعد التي تسوغ لكل الجمل التي يراها المتحدث الأصيل –حسب لغته– صحيحة ومقبولة.

٤,٢ القواعد الكلية

السؤال الذي يبرز هنا –في ظني– هو: هل يوجد فرق بين النحو والقواعد؟ قد لا يرى كثير من الناس وجود فرق بينهما؛ فكلاهما يتعاملان مع تركيب الجملة، بينما يرى المتعمق في دراسة اللغة وجود فروقات بينهما، فالنحو هو جزء من القواعد في كثير من الدراسات، تخيل أنك تبني بيتًا؛ هذا البناء يحتاج إلى تصميم، ومتطلبات سلامة، والتقيد بالمخططات،

(1) Empirical assessment of stimulus poverty arguments, Pullum, G. and Scholz, B., 9 – 50

وهذه المخططات والتصميمات والمتطلبات توضح للعمال كيف يشيدون البناء من الأسفل إلى الأعلى دون أن يسقط، والبناء هنا يمثل الجزء الأهم في تشييد البيت، لكنه ليس الجزء الوحيد في عملية التشييد، مثل عملية البناء في تشييد البيت، بناء الجملة يحتوي عدة عمليات، الاسم الجامع لكل هذه العمليات هو "القواعد". إنشاء الإطار التركيبي للجملة مثل بناء (العظم) للبيت وهو ما يُعرف بـ (النحو)؛ فالنحو مهم لكنه ليس كل شيء فهو جزء واحد من قواعد الجمل، فالقواعد هي مجموعة من أنظمة اللغة والتي تستخدمها لتوصيل المعنى، القواعد مكون أساسي لبناء الجملة وتتشاطر أهميتها مع المعجم اللغوي أو المفردات.

تشتمل القواعد على الصرف، والصوت، والنحو ، والمعنى. ولنكون أكثر دقةً، فالقواعد توضح آليات استخدام الكلمات، خاصة نوع الكلمة، مثلًا: يجب أن يطابق الفاعل الفعل في التذكير والتأنيث والعدد إذا تقدم الفعل عليه، مثل: الأولادُ جاءوا. بينما يعد نظام ترتيب الكلمات في الجملة نظامًا نحويًّا محضًا. كل الأنظمة النحوية هي أيضًا أنظمة قواعدية وذلك يعود إلى أن النحو هو جزء من القواعد. وهذه بعض عناصر النحو: أنواع الجمل، المركبات، المكونات، وتركيب الجملة، النحو التقليدي (أو المعياري أو الوصفي) هو النحو الذي يصف اللغة بناء على " التصنيف " أو هو الذي يضع أنواعًا مختلفة من التراكيب النحوية في قوالب تصنيفية.

المبدأ الذي يقوم عليه النحو التقليدي هو أن المركبات (الجمل التي لا تحوي مبتدأ أو خبرًا) والجمل التامة تُبنى من مجموعة من الوحدات اللغوية، بحيث تنتمي كل وحدة إلى قالب (ذي خاصية قواعدية) محدد وله وظيفة نحوية محددة، ومهمة اللغوي في هذا المجال تكمن في تحليل المركبات النحوية لأي نوع من الجمل لكي يكشف عن وحداتها اللغوية وليوضح القالب التصنيفي الذي تنتمي إليه والوظيفة النحوية التي تؤديها (عملها الوظيفي). بخلاف النحو التقليدي، فالنحو التوليدي يقوم على فرضيات إدراكية، وبالنسبة لتشومسكي فالهدف من دراسة اللغة هو معرفة ماذا يعرف المتحدث الأصيل عن لغته الأم من أشياء مكنته من الحديث والفهم، وكيف للمعرفة اللغوية أن تمثَّل داخل الدماغ/العقل، وبالتالي فدراسة اللغة هي دراسة نوع خاص من الإدراك (المعرفة البشرية).

يمكن القول بوضوح أن كل متحدث أصيل يدرك جيدًا قواعد لغته التي يتحدثها يوميًّا. فمثلًا، بإمكان المتحدث الأصيل أن يخبرك أن الجملة المثبتة المقابلة للجملة المنفية "أنا أحب اللحم" هي "أنا لا أحب اللحم" وليست "*أنا أحب لا اللحم". بعبارة أخرى: المتحدث الأصيل لديه المقدرة اللغوية التي تمكنه من المزاوجة في لغته بين الكلمات ليشكل تعبيرًا صحيحًا، وكذلك المتحدث الأصيل في اللغة العربية مثلًا بإمكانه أن يخبرك أن جملة "هي تحبني أكثر منك" هي جملة فيها لبس لأنها تحتمل معنيين: المعنى الأول: هي "تحبني أكثر مما تحبك أنت"، والمعنى الثاني: "هي تحبني أكثر مما تحبني أنت"، فالمتحدث الأصيل بإمكانه أيضًا أن يعرف كيف يفسر الجمل داخل لغته. ومع ذلك، فقد يكون من المهم أن نؤكد على أن هذه المعرفة اللغوية بقواعد تركيب اللغة وتفسير معانيها تعتبر ضمنية داخل العقل الباطن اللا واعي جزئيًّا أكثر من إدراكها داخل العقل الواعي، وبالتالي فإنه من غير الجيد أن تسأل متحدثًا أصيلًا لأي لغة عن كيفية تركيب جملة منفية، وذلك لأن البشر لا يدركون العمليات اللغوية التي تتم داخل العقل (الدماغ) التي تتضمنها عمليات الحديث والفهم، وتشومسكي قدم المصطلح التقني لهذه العمليات والذي أطلق عليه "الكفاءة النحوية"، هذا المصطلح يعني أن المتحدث الأصيل يملك كفاءة نحوية في لغته الأم، وهذا يعني أنه يملك معرفة ضمنية لقواعد لغته، أي أنه يعرف كيف يركب ويفسر الكلمات، والمركبات، والجمل داخل لغته.

في ستينيات القرن الماضي، فرق تشومسكي بين الكفاءة اللغوية والأداء اللغوي، فالكفاءة اللغوية هي معرفة المتحدث الأصيل الضمنية بقواعد لغته، أما الأداء اللغوي فهو المقدرة اللغوية على استعمال كفاءته اللغوية في إنتاج الجمل بصفته مرسلًا، وكذلك فهم الجمل بصفته متلقيًا (تشومسكي، ص: ٤)[1]. يقول رادفورد الأداء اللغوي في كثير من الأحيان لا يمثل انعكاسًا كاملًا للكفاءة، فنحن أحيانًا نرتكب أخطاءً لغوية عندما نتحدث كما أننا قد نسيء تفسير نص قيل لنا. ومع ذلك، فهذا لا يعني أننا لا نعرف جيدًا لغتنا الأم أو أننا لا نملك كفاءة فيها، وأي خلل في إنتاج الجمل أو تفسيرها فهو خلل في الأداء

(1) Aspects of the Theory of Syntax, Chomsky, Noam

وليس في الكفاءة ويمكن أن تعزى إلى عوامل خارجية مثل التعب أو الملل أو تعاطي عقاقير تسبب الهلوسة أو الخمول، وقواعد اللغة تخبرنا ما نحتاجه من أجل أن يكون لدينا كفاءة في اللغة كأن نتحدث اللغة كما يتحدثها أهلها الأصليون، وهذا بالتالي يدلل على أن القواعد متعلقة بالكفاءة لا بالأداء، وهذا لا ينفي الحاجة إلى دراسة الأداء بوصفه موضوعًا للدراسة، ولكن للتأكيد على أن الأداء يمكن أن يدرس أكثر في تخصصات ضمن اللغويات النفسية والتي تهتم بدراسة العمليات النفسية المتعلقة بإنتاج الكلام واستيعابه[١]؛ ولذلك، فنحن عندما ندرس الكفاءة النحوية لمتحدث أصيل للغة معينة كاللغة العربية مثلًا فنحن ندرس النظام الإدراكي الداخلي في عقل (دماغ) المتحدث الأصيل للغة العربية، والذي هو إنتاج الجهاز الإدراكي الذي "يتشارك فيه البشر ويعتبر خاصية فريدة يختص بها البشر دون غيرهم من سائر الكائنات الحية" (تشومسكي، ص: ١)[٢]، والهدف من وراء دراسة الكفاءة هو من أجل وصف طبيعة النظام اللغوي الداخلي والذي يجعل المتحدث الأصيل متقنًا للغته (تشومسكي) [٣]. وسيكون لهذا المنهج نتائج واضحة حينما يتعلق بتطوير قواعد أي لغة كما أكد تشومسكي (ص: ٢٢) قواعد اللغة هي "نظرية النظام اللغوي الداخلي ... والتي هي تحت البحث"[٤]. هذا يعني أن اللغوي عندما يضع قواعد للغة ما فهو يحاول أن يكتشف النظام اللغوي الداخلي الذي يمتلكه المتحدث الأصيل للغته، بعبارة أخرى، يحاول اللغوي أن يصف الحالة العقلية (حالة الكفاءة اللغوية وبالتالي المعرفة اللغوية)، وقد أراد تشومسكي من دراسة اللغة أن يكتشف نظريةً لما يسمى النحو الكلي (القواعد الكلية) وهو توصيف للحالة الأولى للملكة اللغوية فهو مجموعة من المبادئ العامة التي تصف الملكة اللغوية عند كافة البشر، والتي هي جزء من الموهوبات البيولوجية الموروثة (باقر، ص: ٨٧)[٥].

---

(1) Analysing English Sentences: A Minimalist Approach, Radford, Andrew

(2) Approaching UG from below, Chomsky, Noam

(3) Knowledge of Language: Its Nature, Origin and Use, Chomsky, Noam

(٤) المصدر السابق

(٥) مقدمة في نظرية القواعد التوليدية، باقر، مرتضى

يعرف تشومسكي (ص: ٢٣) النحو الكلي على أنه "نظرية النظام اللغوي الداخلي البشري ... النظام اللغوي الداخلي هو الذي يمكن الوصول البشري إليه في الظروف الطبيعية"[١]، ويقصد بـ (الوصول البشري) "مهيأ حصول البشر عليه". بعبارة أخرى، النحو الكلي هو نظرية حول طبيعة القواعد المحتملة للغات البشرية، وبالتالي فنظرية النحو الكلي تجيب عن السؤال التالي: ما الخصائص المميزة لقواعد اللغات البشرية؟

النحو الكلي يجب أن يحقق معايير الكفاية. على سبيل المثال، أحد هذه المعايير هو معيار الشمولية، ويعني به أن نظرية النحو الكلي يجب أن تزودنا بالأدوات اللازمة التي من خلالها نستطيع أن نقدم قواعد وصفية كافية لأي (أو لكل) لغة داخلية بشرية، أي القواعد التي تصف بطرق صحيحة كيفية تكوين الجمل وتفسيرها في اللغة ذات العلاقة. باختصار، أدوات النحو الكلي ستكون أقل أهمية إذا استطاعت أن تصف قواعد اللغة العربية والإنجليزية ثم لم تستطع وصف قواعد اللغة الصينية أو المهرية، أحد المتطلبات هي أن النظرية اللغوية يفترض أن تقدم قواعد تستفيد من الحد الأدنى من الأدوات النظرية المطلوبة. بعبارة أخرى، القواعد يفترض أن تكون بسيطة قدر الإمكان، و بعض النسخ الأولى من النظريات اللغوية كانت تحتوي على مبادئ وتراكيب معقدة، فتشومسكي في آخر ثلاثة عقود، وكردة فعل على هذا التعقيد المفرط فيه، قام بتقليل الأدوات النظرية والوصفية المستخدمة في تحليل اللغة إلى أن تمكن من تطوير ما يسمى برنامج الحد الأدنوي، ويقترح تشومسكي أن اللغة نظام مكتمل لتصميم مثالي وهذ يعني أن قواعد اللغة الطبيعية تنشئ تراكيب مصممة لتكون متلائمة بصورة مثالية مع باقي مكونات العقل وأكثر تحديدًا مع أنظمة الكلام والفكر أو كما قال تشومسكي (ص: ٢) "اللغة هي طريقة مثالية لربط الصوت بالمعنى"[٢].

(1) Knowledge of Language: Its Nature, Origin and Use, Chomsky, Noam

(2) On Phases, Chomsky, Noam

الخاتمة:

ناقشت هذه الورقة العلمية أهمية النحو الكلي ودوره في فهم التنوع اللغوي، كما أوضحت أن تسليط الضوء على مثل هذا النوع من الدراسات يحتاج إلى تعمق بحثي وذلك نظرًا لكثرة التداخلات البينية، فأسباب ظاهرة التنوع اللغوي منها ما يعود إلى لغوي اجتماعي، أو لغوي نفسي، أو لغوي إدراكي أو فلسفي بحت. غير أن الدراسة اهتمت بالجانب اللغوي الاجتماعي؛ وذلك نظرًا لما توليه الدراسات الاجتماعية من اهتمام بعلاقة اللغة والمجتمع. أما بالنسبة للنحو الكلي، فهو من الموضوعات المثيرة للجدل على مستوى الدراسات اللغوية، ففريق لا يرى وجود ما يمكن أن يسمى نحوًا كليًّا، وهذه الفكرة يتبناها في غالب الأمر اللغويون التاريخيون وأصحاب المنهج السلوكي، فهم يرون أن اللغة تظهر أشكالًا مختلفة؛ فهي تفتقد السمة التي يمكن أن نجدها في الفكر، فالفكر هبة فطرية واللغة سلوكية، أما الفريق الآخر فهم أصحاب المنهج التوليدي الذي يرى أن اللغة يجب أن تعالج من جانب توليدي، حيث يقوم هذا المنهج بالتمييز بين الكفاءة اللغوية والأداء اللغوي، أي بين معرفة مستخدم اللغة بلغته واستخدامه لها، ويرى أصحاب هذا المنهج أن اللغة هي نظام ذهني مستقل لا يتعارض مع الفكر فكل منهما مستقل عن الآخر.

ميزت الدراسة بين اللغة واللهجة، فوضحت أن الفروقات بينهما لا تعتد بها كثير من المناهج اللغوية باعتبارهما بيانات لغوية مختلفة الأنماط. أما في المعاجم، فاللغة نظام يتألف من مفردات وتراكيب، واللهجة أسلوب يميز فئة معينة من المجتمع، وتعتبر اللهجة رافدًا مهمًّا لتفسير الظواهر اللغوية التي قد لا نجد لها دليلًا إلا في اللهجة الفرع.

تناولت الدراسة أهم أسباب التنوع اللغوي من منظور لغوي اجتماعي، وبينت أن من أهم أسبابها: الهجرة، واكتساب اللغة الثانية. فالمهاجرون يحملون معهم أيضًا لغتهم ولكنتهم الخاصة بهم إلى المجتمعات التي يهاجرون إليها، وظاهرة اكتساب اللغة من الأسباب المهمة في التنوع اللغوي؛ فهذه العملية اللغوية تؤدي إلى ظهور أنماط غير موجودة في اللغة المكتسبَة سواء على مستوى النطق أو اختيار المفردات أو التراكيب أو في البنية الصرفية، وما يحدث من نقل خصائص اللغة الأولى إلى اللغة الثانية ما هو إلا انحراف صريح عن قواعد وأنظمة

اللغة الثانية.

تناولت الدراسة النحو الكلي وبينت أهداف النظرية النحوية خاصة النظرية التوليدية والتي تهتم بدراسة اللغة كما يتمثلها العقل البشري وليس بوصفها ظاهرة مجردة موجودة في المجتمع، وتطرح النظرية العديد من الأسئلة لفهم مقدرة الإنسان على إنتاج أو فهم عدد لا متناهٍ من الجمل وذلك باستخدام أدوات محدودة، فيرى أصحاب النظرية، بناءً على ذلك، أن العقل البشري يملك نظامًا محدودًا يتميز بطابع الإنتاجية ولديه ذاكرة تساعده في ذلك. تناولت الدراسة، أيضًا، السمات الأساسية للغة البشرية، ومن أهمها العلاقة الاعتباطية بين الدال والمدلول، والإنتاجية، والنظام، وقابليتها للنقل الثقافي. وضح البحث أن النحو التوليدي يقوم على فرضيات إدراكية، فالهدف من وراء دراسة اللغة هو معرفة ماذا يعرف المتحدث الأصيل عن لغته وكيف لهذه المعرفة أن تتمثل داخل الدماغ البشري، وبالتالي فدراسة اللغة هي نوع خاص من الإدراك، كما وضح البحث أن النحو الكلي هو توصيف للحالة الأولى للملكة اللغوية، فهو باختصار مجموعة من المبادئ العامة التي تصف تلك الملكة اللغوية عند كافة البشر، وهي جزء من الهبات البيولوجية الوراثية، كما يتميز النحو الكلي بالشمولية التي تمكنه من معرفة الأدوات اللازمة لوصف طبيعة اللغات البشرية وبالتالي مقدرته على وضع أطر عامة وحدود النظام اللغوي الذي تشترك فيه كل اللغات الطبيعية مما يجعل ظاهرة التنوع اللغوي ظاهرة طبيعية تختلف فيها اللغات في خصائص معينة ومحدودة، لكن تشترك في ما بينها في الخصائص اللغوية التي وضعتها نظرية النحو الكلي.

يشكر الباحث جامعة الأمير سطام بن عبدالعزيز على تمويل هذا المشروع
من خلال مشروع رقم (PSAU/2023/02/23963)

المراجع

١. علم اللغة الاجتماعي في الوطن العربي (محاور ونظريات)، بسيوني، ريم، ط: ١، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ٢٠١٨.

٢. فصول في اللسانيات الاجتماعية، تريكي، مبارك، ط: ١، ط١، عمان، مركز الكتاب الأكاديمي، ٢٠١٩.

٣. مقدمة في نظرية القواعد التوليدية، باقر، مرتضى، ط: ١، عمان، دار الشروق للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢.

4. An Introduction to English Sociolinguistics, Trousdale, G, Edinburgh, Edinburgh University Press, 2010.

5. Analysing English Sentences: A Minimalist Approach, Radford, Andrew, Cambridge, Cambridge University Press, 2009.

6. Approaching UG from below, Chomsky, Noam, Cambridge, MIT Press, 2006.

7. Aspects of the Theory of Syntax, Chomsky, Noam, 1st edition, Cambridge, MIT Press, MA, 1965.

8. Cartesian Linguistics: A Chapter in the History of Rationalist Thought, Chomsky, Noam, New York Harper & Row,1966

9. Comparative concepts and descriptive categories, Haspelmath, Martin, cross-linguistic studies, Language, 86(3), 2010), pp. 663 – 87.

10. Control is not movement, Culicover, P. W. and Jackendoff, R., Linguistic Inquiry, Cambridge, MIT press, 30, 2001, pp. 483 - 512.

11. Dynamical Grammar: Minimalism, Acquisition and Change, Culicover, P. W. and Nowak, A. Oxford, Oxford University Press. 2003.

12. Empirical assessment of stimulus poverty arguments, Pullum, G. and Scholz, B., The Linguistic Review, 19, 2002, 9 – 50.

13. Foundations of Cognitive Grammar, Langacker, Ronald, Theoretical Prerequisites, Stanford, Stanford University Press, Vol. 1, 1987, pp. 2-42.

14. Finitary models of language users, Miller, George A. and Noam Chomsky, In R. D. Luce, R. R. Bush and E. Galanter (eds.) Handbook of mathematical psychology, vol. 2. New York: Wiley, 1963, 419–491.

15. Knowledge of Language: Its Nature, Origin and Use, Chomsky, Noam, New York, Praeger, 1986.

16. Language, Bloomfield, Leonard, 1st edition, New York, Henry Holt, 1933.

17. Migration and Migrant Population Statistics, Eurostat, M, Brussels, European Commission, 2012.

18. Minimalist Inquiries: The Framework, Chomsky, Noam, Step by Step: Essays on Minimalism in Honor of Howard Lasnik, Cambridge, MIT Press, 1998, pp. 89 - 155.

19. On Phases, Chomsky, Noam, Foundational Issues in Linguistic Theory, MIT Press, 2005.

20. Philosophy of grammar, Jespersen, Otto, London: Allen and Unwin, 1924.

21. Syntactic Theory: A Formal Introduction, Sag, I. Wasow, T. and Bender, E., Stanford, CA, CSLI Publications, 2003.

22. Super-diversity and its implications, Vertovec, S., Ethnic and Racial Studies, 29(6), 2007, 1024 – 1054.

23. Streitfall Zweisprachigkeit—The bilingualism controversy. Springer VS. Gogolin I., Neumann, U., 2009.

24. The Bilingualism Controversy, Gogolin, I. & Neumann, U, Streitfall Zweisprachigkeit, Wiesbaden: VS-Verlag, 2009.

25. The acquisition of gender and declension class in a non-transparent system: Monolinguals and bilinguals. Rodina, Y., & Westergaard, M., Studia Linguistica, 2013, 67, 47–67.

26. The digital language divide How does the language you speak shape your experience of the internet? Young, H, The Guardian, 2015. Mode of access:

27. http://labs.theguardian.com/digital-language-divide/ 2024

28. The language of thought, Fodor, Jerry, New York, Crowell, 1975.

29. The Minimalist Program, Chomsky, Noam, Cambridge, MIT Press, MA, 1995.

30. The myth of language universals: Language diversity and its importance for cognitive science, Evans, N and Levinson, S, Behavioral and brain sciences, 32(05), 2009, pp. 429 – 448.

31. The Philosophy of Universal Grammar, Hinzen, W. & Sheehan, M, Oxford, Oxford University Press, 2013.